المثاقفة والخطاب التاريخي الكولونيالي: قراءة في تجليات المثاقفة وأبعادها في كتاب: بوفاريك (صفحة من تاريخ الكولون في الجزائر) للمؤرخ العسكري الفرنسي كورنايل ترومليه [1]Corneille TRUMELET

Inter culturalism and Colonial Historical Discourse: Read in the manifestations of the cultures and their dimensions in the book: Boufarik (page of the history of colon in Algeria) by the French military historian :Corneille TRUMLET [1]

عمر برداوي

تاريخ الإرسال:06/ 07/ 2022	تاريخ القبول: 2022/10/29	تاريخ النشر: 2022/11/10

الملخص:

حرص الاحتلال الفرنسي منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر سنة 1830، على تسخير جميع الأدوات الممكنة للتمكين لمشروعه الإنبريالي، ومن أكثر تلك الأدوات خطر الاستعمار الثقافي، لذلك انبرى مفكروه ومؤرخوه لهذه المهمة بأشكال مختلفة، أبرزها معرفة ثقافة المجتمع الجزائري قصد الوقوف على مظاهر القصور فيها لتبرير مشروع الهيمنة، لذلك تجلت صورة المثاقفة في بعدها الانبريالي تشويها للمحلي الأصيل وتشيدا للأجنبي الدخيل، هذا ما حاولت هذه الدراسة تفكيكه من خلال كتاب بوفاريك صفحات من تاريخ الكولون في الجزائر للمؤرخ العسكري الفرنسي كورنايل ترومليه.

الكلمات المفتاحية: المثاقفة، الخطاب التاريخي. الكولون.. الهيمنة.. اللهجة المحلية.

Abstract:

Since France’s occupation of Algeriain 1830, the French occupation has sought to use all possible tools to enable its imperialist project. One of those instruments is the danger of cultural colonialism, soher thinkers and historians have working to this task in different forms, most notably, knowledge of the culture of Algerian society is aimed at identifying its gapsin order to justify the hegemony project. So the image of the inter culture manifested itself in its imperialist sideas a distortion of the authentic local and a tribute to the alien intruder, That's what this study tried to analyzed through the book Boufarik Pages of Colon History in Algeria by French military historian Corneille TRUMLET.

المؤلف المرسل: عمر برداوي omarberd09@gmail.com

مقدمة:

حدث اللقاء بين الغرب والشرق في العصر الحديث في سياق موجة الاستعمار، ومن مظاهر ذلك اللقاء امتزاج الثقافات، لقد بدا لباحثين كثيرين ذلك السعي الحثيث من قبل مفكري الاستعمار ومثقفيه لمعرفة ثقافة الشرق، في واحد من أشكال المثاقفة المختلفة، فهل كانت تلك المثاقفة ذات قصدية نفعية حقا؟ ألم تكن أداة من أدوات الهيمنة والتوسع؟ وسلاحا من أسلحة السيطرة وتحقيق أحلام الإمبراطوريات الحديثة؟ ألم تكن شكلا من أشكال التعالي واستعراض التفوق الحضاري للغرب في ظل انكفاء الثقافات الشرقية؟ في هذه المقاربة نسعى لإثارة هذه الأسئلة من خلال واحدة من المدونات التاريخية الاستعمارية في القرن التاسع عشر في الجزائر إنه كتاب بوفاريك لكورنايل ترومليه.

1.1 الثقافة

استقر في أذهان الباحثين أن الثقافة مفهوم ذهني مجرد يستعصي عن التحديد الدقيق؛ فهو مثله مثل مفهومات ذهنية كثيرة قابلة للتطور الدلالي مع الزمن، ومن عوامل عدم استقراره على دلالات ثابتة، هو تغيُّر الدراسات التي تصدت له، والتي كانت في أكثر أحوالها مرهونة للميولات الذاتية والأيديولوجيات المنحازة. لقد أنحدرت لفظة ثقافة في العربية من الجذر اللغوي ثقف بمعنى التقويم والتسوية، و«الثِّقاف ما تُقوّم به الرماح »[2]،

ولذلك فإن دلالة التعديل الإيجابي والتهذيب راسخة في هذا المفهوم في الفكر العربي، فـ « ثقف الشيء ثقفا وثقافا وثقوفة: حذقه ورجل ثقف وثَقِف وثَقُفٌ : حاذق فهم »[3].

وقريب من هذه الدلالة ما نجده في الأصل اللاتيني للكلمة (cultura) « التي تعني التربية ...، والقدرة الإنسانية الشاملة على التعلم ونقل المعارف واستخدامها في الحياة »[4]. يرى أيغلتون أن للثقافة معنى جانبيا ذا صلة بالمجتمع الزراعي، إذ يذكر:« أن أحد معانيها الأصلية هو الزراعة أو العناية بالنماء الطبيعي ...وكلمة (coulter) وهي الكلمة القرينة لكلمة ثقافة (culture) تعني سكة المحراث، ونحن نشتق الكلمة للدلالة على أسمى وأرفع الأنشطة البشرية في مجالات العمل والزراعة والحراثة والحصاد ..»[5] ولكن تحول رأس المال لصالح مجتمعات المدينة، وتكتل النسبة الكبرى من التجمعات البشرية النشيطة حول المواقع الصناعية والابتكارية والتجارية والخدماتية، جعل المجتمع الزراعي يفقد جاذبيته مقارنة بمجتمع المدينة، وربما هذه التحولات هي التي سوّغت لبعض الباحثين المنبهرين بالمدنية بأن ينظروا لهذا المفهوم بعين التقليل، فيجعلونه مقرونا بالمجتمعات البدائية في مقابل مفهوم الحضارة، الذي ارتبط في أكثر أحواله بالبيئات المتحضرة. ولذلك كانت الثقافة أكثر حقل معرفي يحظى بالاهتمام والعناية في البحوث الأنتروبولوجية التي جعلت الشعوب المستعمرة و الأقل تحضرا حقولا مخبرية واسعة للبحث التجريبي، وأصبحت واحدة من موضات القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وهي تصاحب حملات الاستعمار وموجات الهيمنة الانبريالية.

ربما يكون التعريف الذي صاغه الأنجليزي إدوارد تايلور(E. Taylor) للثقافة في كتابه الثقافة البدائية 1871 (Primitive Culture) واحدا من أقدم التعريفات وأكثرها دورانا في البحوث والدراسات التي تصدت لموضوع الثقافة إذ يقول: الثقافة هي « تلك الوحدة الكلية المعقدة التي تشمل المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والعرف وغير ذلك من الإمكانيات أو العادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في مجتمع »[6]. وربط روبيرت بيرستد في مطلع الستينيات من القرن العشرين هذا المفهوم بمقومات التفكير والعمل والامتلاك حين قال: « إن الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه، أو نقوم بعمله، أو نتملكه كأعضاء في مجتمع »[7]. إن تلك الوحدة الكلية هي ساهمت في بروز الهويات والخصوصيات الثقافية، ولكن ظروف التلاقي والتقارب بين

المجتمعات منح فرصة التلاقي والتلاقح بين الثقافات وحصلت بسببها صور كثيرة من المثاقفة فما هي المثاقفة؟

1. 2: المثاقفة.

قد يكون المعنى الشائع للمثاقفة كما ورد في مختلف المعاجم هو اكتساب ثقافة مغايرة للثقافة الأصلية للفرد أو الجماعة[8] وقد رجع عز الدين المناصرة في بحثه عن تعريف للمثاقفة إلى عدد من القواميس منها معجم لاروس الفرنسي الذي ورد فيه أن المثاقفة (L'acculturation) هي التكييف الإجباري أو الإرادي ...إلى ثقافة جديدة مادية ومعتقدات جديدة وسلوكات جديدة، وفعل تثاقف Acculturer، تكييف فرد أو مجموعة لثقافة جديدة »[9]، ....كما استحضر تعريف محمد برادة : « المثاقفة مصطلح سوسيولوجي ذو معان متداخلة وتقريبية، وبصفة عامة يطلق على دراسة التغيير الثقافي الذي يكون بصدد الوقوع نتيجة لشكل من أشكال اتصال الثقافات : الاستعمار، المبادلات التجارية والثقافية، الأسفار ». وخلص إلى تجميع حزمة من المعطيات تعرف بها المثاقفة أهمها: أن المثاقفة أداة لاكتساب عناصر جديدة بالنسبة إلى كلتا الثقافتين المتصلتين، فيكون الانفتاح الثقافي، ويساعد ذلك في إضافة عناصر جديدة إلى ثقافة الآخر. وتتم المثاقفة بالقوة أو بالقبول.. كما أنها تحمل معنى التعالي عند طرف والدونية عند الطرف الآخر .. كما تحمل المثاقفة معنى الفترات الانتقالية والصراع بين الطرفين (الاستعمار) و قد يؤدي ذلك إلى ازدواجية في الشخصية حيث تبقى حائرة بين عناصر الهوية الأولى وبين العناصر الجديدة، وقد يفضي ذلك إلى رفض الثقافتين دون طرح البديل، أو يتم الهروب باتجاه الثالث[10]. إنها كما جاء في المؤتمر الذي عقد في 1938: « مجموعة من الظواهر الناتجة عن اتصال مباشر ومتواصل بين أفراد ينتمون إلى ثقافات مختلفة، مع ما يترتب على ذلك من تغييرات في الأنماط الثقافية لهذه المجموعة أو تلك .»[11]

1. 3: الاستشراق :

إن الذي يعنينا ـ وهو ما يستجيب للمدونة التي نحن بصدد الوقوف عليها ـ من كل هذه التعريفات، هو ذلك الشق الذي يستثمر المثاقفة في بعدها الصراعي: وجود طرفين يحاول أحدهما تغليب ثقافته وتكريسها على حساب ثقافة الآخر..إن اشتقاق صيغة مثاقفة في

العربية عل وزن مفاعلة يحيل على معنى المشاركة، وفي إحالتها الإيجابية جسر التعاون والتعاضد وهو ما يولد مضاعفة الجهد وقوة الإنجاز لذلك تنجلي المثاقفة في شكل البناء والتشييد .. لكن هذه الصيغة نفسها لها مدلول معاكس هو المواجهة واللقاء بين طرفين، وهذه المواجهة قد تبدو أحيانا في صورة صراع أو نزال، وهو الأمر الذي يؤدي أحيانا إلى منتصر و منهزم ؛ وهذا الوجه السلبي للمثاقفة حينما تكون أداة لهيمنة ثقافة على حساب أخري، هو الذي كانت له الريادة في صور اللقاء بين الغرب الأوروبي والأمريكي الشمالي من جهة، و الشعوب الأخرى التي وقعت تحت الاستعمار الحديث ...لقد تجلت في البداية في صور الاستشراق باعتبارها أدوات لمعرفة الشرق وفهم علومه وصور الحياة الفكرية فيه؛ يقول النبهان: « المستشرق هو المتخصص في علوم الشرق وحضارته وآثاره وفنونه، وأطلقت كلمة مستشرق أول مرة سنة 1630 م على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية، ثم أطلقت بعد ذلك على من عرف لغات الشرق، وعرف قاموس أوكسفور الجديد معنى المستشرق بأنه (من تبحر في لغات الشرق وآدابه) ...وأطلقت كلمة الاستشراق لأول مرة في معجم الأكاديمية الفرنسية سنة 1838م بعد أن شاع استعمالها وأصبحت اللفظة دالة على التخصص في الثقافات الشرقية ...وقد كانت مهمة علم الاستشراق الأولى ذات طبيعة ثقافية استكشافية »[*12]. ولكن هذه الطبيعة الإيجابية التي تقمصها الاستشراق ما لبثت أن انحرفت عن روح البحث والاستكشاف، لتتحوّل إلى أداة للسيطرة، عندما أصبحت تلبي رغبات أيديولوجية انبريالية مقترنة بموجة الاستعمار والتوسع. التي قادتها الأمبراطوريات الغربية، لقد أصبح منذ منتصف القرن الثا من عشر إلى مطلع القرن العشرين تلبية لرغبات الهيمنة والتوسّع الامبريالي التي قادته ابريطانيا وفرنسا خاصة، وأصبح يمثل اليد الثقافية والمعرفية التي تسلم إلى السيادة و السيطرة،، Savoir Pour Pouvoir كما- يرى إدوارد سعيد - ولذلك ما انفكت منطلقات الاستشراق الفكرية تستجيب بصورة جلية لفكر الهيمنة والتوسع الذي رسخته فلسفة عصر الأنوار المقترنة بتعاظم الثقافة الغربية ومدنيتها، إن المكتسبات التي حققتها هذه بعد صعود البحوث المخبرية وسيادة المناهج التجريبية سوّغ للفكر الأوروبي كي يعتبر نفسه سيد الطبيعة ومالكها، كما دعا إلى ذلك ديكارت من قبل ؛ أصبح كل شيئ تطاله اليد قابلا للقياس والتجربة المخبرية، وفي هذا الجوّ الثقافي الذي هيمن فيه العقل الغربي يقول إدوارد سعيد: «كان الاستشراق يمثل

استجابة للثقافة التي أوجدته أكثر من استجابته لموضوعه المفترض، وهو الذي أنتجه الغرب أيضا .وهكذا فإن تاريخ الاستشراق يتسم باتساق داخلي وبجموعة بالغة من الوضوح والتفصيل من العلاقات مع الثقافة السائدة المحيطة »[13].

تجلت المثاقفة في حقبة الاستشراق في تلك الحركة النشيطة التي قام بها عدد من المثقفين الغربيين منذ مطلع ق16، لدراسة تراث الشرق وفكره وعاداته، ومهما كانت الدوافع الموضوعية والذاتية والتاريخية التي أنتجت هذا التواصل العبر حضاري فإنه من أبرز أشكال المثاقفة بين الغرب والشرق، لكن مياه نبع الاستشراق التي كانت تبدو في الظاهر صافية نقية من كل عكر، ما لبثت أن أصابها الرنق وهي تتدفق نحو القرن التاسع عشر خاصة، لقد افترض الغرب ـ كما يقول إدوارد سعيد ـ في القرنين التاسع عشر والعشرين أن الشرق وكل مافيه يحتاج إلى دراسة تصحيحية من جانب الغرب ...والاستشراق إذن هو معرفة الشرق التي تضع كل ما هو شرقي في قاعة الدرس، أو المحكمة، أو السجن أو في الدليل المصور، بهدف الفحص الدقيق، أو الدرس أ وإصدار الأحكام، أو التأديب أو تولي الحكم فيه)[14].

تنتج النظرة ثنائيات ذات علاقات غير متكافئة، حينما يصبح الغرب هو الذات الفاعلةالمهيمنة والشرق هو الموضوع مادة الفعل في صور المعلم والتلميذ، القاضي والمتّهم، الجاني الجلاّد القوي والضحية الضعيف، المسيطر والمسيطر عليه. في هذه اللحظة تنحرف المثاقفة عن مسارها المعرفي البنائي إلى وظيفة التفكيك والسيطرة، ويصبح سلوك المثقف الغربي شكلا من أشكال التنازل من الأعلى نحو الأسفل، هذا ما يتصوره الغربي وهو يحاول أن يلج مظاهر الثقافة التي يحملها هذا الشرق المتخلف حسب رأيه . لقد حددت الثقافة الأوروبية كما يقول إدوارد سعيد :« نفسها وميزتها بطريقة تقوم في آن واحد بإضفاء المصداقية على تفضيلاتها الخاصة فيما تنافح أيضا عن هذه التفضيلات مقترنة مع (ممارسة) الحكم الإنبريالي »[15]. وفي هذا السياق كان التطور الذي بلغته بعض العلوم عاملا أساسيا في ترجيح الثقافة الأوروبية على باقي الثقافات : لقد مارست المؤسسات التعليمية . (التي طورها نابليون) في باريس تأثيرا طاغيا على ارتقاء علم الآثار،

واللغويات، وعلم التاريخ، والاستشراق وعلم الحياة التجريبي »[16]. وكانت من أبرز الأدوات الثقافية التي تحققت بواسطتها الهيمنة .

كان الأستشراق في الجزائر كما يقول أبو القاسم سعد الله :« أحد مظاهر الغزو الثقافي الفرنسي »[17] ولذلك كما يذكر أيضا وبمجرد تأزم الوضع بين الجزائر وفرنسا وتفكير الفرنسيين في الاحتلال الفعلي للجزائري، راحوا يترجمون أعمال غيرهم عن الجزائر، بقيادة سيلفيسر دو ساسي De Sacy ، الذي اعتبره بعضهم (أبو الاستشراق) [18] لاسيما في فرنسا، وهو الذي صاغ بالعربية البيان الذي وُزِّع على الأهالي عشية احتلال الجزائر، وشجع تلاميذه وعلى رأسهم لويس برينييه على إنشاء الدرسات العربية في الجزائر. كانت الرغبة واضحة في معرفة حياة الجزائر العربية الإسلامية، و معرفة الشرق من خلالها ...ولكن هذه المعرفة لم تكن ترمي أبدا إلى التلاقح بالمفهوم الإيجابي للمثاقفة، إنما كانت بغرض السيطرة، وامتلاك الأرض والمقدرات الطبيعية. ولذلك فقد صاحب الحملة الاستدمارية الفرنسية فضلا عن الجيوش العسكرية جيش آخر أشد ضراوة وفتكا يمثله رجال الفكر والفن ورجال الدين وعلماء فقه اللغة والأعراق والرحالة والمستكشفون، والأدباء والرسامون، إنه منظومة ثقافية مهيأة ومعبأة ومحفزة لتكمل الفصل الذي كانت قد مهدت له قبل أن تنجز الجيوش العسكرية عملها في الجغرافيا . كان من هؤلاء عدد كبير منهم المؤرخ العسكري الفرنسي: ترومليه.

2/ المؤرخ العسكري الفرنسي ترومليه وكتابه (بوفاريك) :

المصادر الفرنسية القليلة التي ترجمت **لكورنيل ترومليهTrumletCorneille** تذكر، أنه ولد في مدينة ريمس شمال فرنسا في 11 ماي 1817. التحق جنديا بكتيبة المشاة الخفيفة بفرنسا سنة 1839 وارتقى سنة 1851 إلى رتبة ملازم، وهي السنة التي التحق فيها بكتيبة الرماة بجيش أفريقا في الجزائر وظل يخدم في الجزائر حتى تقاعده سنة 1875 برتبة عقيد استقر ببوفاريك ثم بمدينة فالونسيا بفرنسا حتى وفاته بها في يوليو 1892. يعتبر ترومليّ، من الشخصيات المثقفة البارزة في الأوساط الكولونيالية الفرنسية خاصة في القرن التاسع عشر، فهو عسكري ومؤرخ ورحالة وباحث في الثقافة المحلية الجزائرية. كان عضوا

في مؤسسة ثقافية فرنسية تدعى (رجال الأدب) Gens de Lettres وكانت له معرفة باللغة العربية واللغة المحلية الجزائرية يظهر ذلك من خلال مجموعة المؤلفات الي تركها ومنها:

1/ فرنسيون في الصحراء، نشرة عن رحلة إلى حدود الصحراء الجزائرية.[19].

2/ دراسات عن مناطق الصحراء. الانتفاضة في جنوبالجزائر 1864[20].

3/قديسي الإسلام.: أساطير السير والمعتقدات الجزائرية (1881) [21].

4/ البليدة، حكايات حسب الأسطورة والتقاليد والتاريخ (مجلدان، 1887)[22]

5/الجزائر الأسطورية : رحلة حج إلى أضرحة أهم أولياء الإسلام (1892)[23].

6/ بوفاريك (صفحة من تاريخ الاستطان الفرنسي في الجزائر).

Bou Farik *Une page de l'histoire de la colonisation algérienne*

وقد صدر هذا الأخير سنة 1887، في 581ص عن دار النشر أدولف جوردان بالجزائر ..وهي المدونة التي نركز علىها في مقاربتنا الثقافية ...

قسم الباحث كتابه إلى كلمة إخلاص واعتراف، ثم مقدمة، وعشرين فصلا... وجه في البداية كلمة الإخلاص والامتنان إلى المستوطن الفرنسي المسمى بورلي لصافي BORÉLY LA SAPIE (صاحب مزرعة سوق علي) شرق بوفاريك، وأول رئيس بلدية في بوفاريك سنة 1852.

تحدث في الفصل الأول عن بوفاريك قبل 1830..و استعرض في الثاني، والثالث والرابع والخامس محاولات الاحتلال اختراق سهل متيجة والوصول إلى البليدة ثم المدية وصور المقاومة الشديدة التي واجهت الاحتلال قبل التمكن من الاحتلال التام للمتيجة، وهي فصول حرص من خلالها المؤلف على تلميع وجه الاحتلال وإبراز الدور الذي قام به الفرنسيون في إنشاء معالم المدينة الأوروبية والريف الأوروبي في بوفاريك والمتيجة، كما يتضمن الكتاب إشارات عارضة تؤكد بالنسبة لنا و تقدم صورا مجيدة من مقاومة الشعب الجزائري للاحتلال في منطقة المتيجة منذ أن وطئت أقدام جنوده هذه الأرض

لاسيما حينما وصلت كتائب الأمير عبد القادر بعد 1837. في الكتاب كذلك إشارة للقادة الفرنسيين أمثال فوارول كلوزيل وبوجو والمناصب التي أسندت لهم في الجزائر .

واستعرض الكاتب في الفصول التالية تطور الأحداث في المتيجة وصراع الفرنسيين مع المقاومة، ومع أوبئة المناخ التي فتكت بمئات الفرنسيين الذين لم يستطيعوا التأقلم مع حمى المستنقعات،و قدم فصولا طويلة للنمو السكاني في بوفاريك، وصور استصلاح أراضي وتشييد مدينة بوفاريك، معتمدا الاحصائيات والجداول .وكل ذلك بمنهج البحث التاريخي الذي ينشد المسح والاستقصاء والتوثيق ويتحرى الموضوعية والروح العلمية ... فهو مثلا يذكر بالتفصيل أسماء المستوطنيين الذي سكنوا بوفاريك ومساحات الأراضي التي امتلكوها، وأحيانا يذكر عدد الأشجار التي غرست في سنوات معينة وأنواعها وفوائدها ويذكر حتى نسب تساقط الأمطار في سنوات معينة[24] ...

في هذا الكتاب الذي خصّصه لتاريخ بوفاريك في الخمسين سنة الأولى بعد 1830. عناصر ثلاثة بارزة ركز عليها الكاتب، هي سوق الاثنين الذي كان معروفا منذ العهد العثماني، والمعمر بورلي لاسافي أول رئيس بلدية في بوفاريك والملازم براندان الذي قتل في كمين بنيران المقاومة هو وسبعة من الجنود في مدخل ابن مراد شمال شرق مدينة البليدة في 11أفريل 1842... ولكن هذه المعطيات التاريخية ليست هي موضوعنا الأساسي في هذه الدراسة، بل هو موضوع المثاقفة وتجلياتها وتحيزاتها في هذا الكتاب التاريخي .

3/ بين ريشة المؤرخ، وسيف الجلاد:

أعلن الكاتب ولاءه للمشروع الانبريالي الاستعماري الفرنسي منذ صفحة الغلافالأولى، التي اختار علاماتها بعناية فائقة حينما ذيل عنوان الكتاب بشعار الماريشال بوجو (بالسيف والمحراث، (Parl'épée et par la charrue) وأتبعها بفقرة مقتبسة من الصفحة 262 الفصل السادس من كتاب التطور للمؤلف الفرنسي المعاصر له (إدمون أبو Edmont About) (1828/ 1885) والتي تؤكد على فكرة الاجتثاث من أجل امتلاك الأرض [25] . إن هذه العتبة وجهة عرض مكثّفة تؤكد البعد الأيديولجي الاستعماري والولاء الأمين للمشروع الإنبريالي الفرنسي في مرحلة التوسّع خارج حدود فرنسا، وقد حاول الكاتب في مرات عديدة تأكيد هذا الولاء خاصة في ظل الزحام الذي كانت تتعرض له فرنسا لاسيما

من غريمتها التقليدية بريطانيا والتي ازدادت وضوحا بعد هزيمة واترلو 1815. تحيل هذه الفقرة المقتبسة على قضايا بالغة الأهمية فيما يتعلق بنظرة المثقف الاستطاني العسكري نحو الشعوب الواقعة تحت الاحتلال، إن الإعمار له ثمن وفائدة، وإذا كانت الفائدة ستعود من منظور الاستعمار على الاحتلال أولا والمجتمع الواقع تحت الاحتلال ثانيا، فإن الثمن لابد أن يدفعه المهزوم من دمه وجهده وأرضه المغتصبة، وهذا ما يحيل عليه شعار بوجو صراحة، وتحيل عليه الفقرة أيضا. تتجلى لنا هنا أولوية العسكري على الثقافي الحضاري، لابد أن لا ننسى أن الكاتب كان بدوره عسكريا، فمن الطبيعي أن يسلك درب قادته العسكريين الذين كانوا يرون أن أسلوب الإخضاع بالبطش والقوة لابد أن يسبق أسلوب الإعمار والبناء، إفراغ الأرض من أهلها بالسيف قبل شقها بالمحراث وهو ما تجسد فعلا على الأرض من خلال حملات الإبادة التي قادها ضباط الاحتلال ضد الأهالي الذي رفضوا التنازل عن أراضيهم وأملاكهم. يقول إدوارد سعيد :« كان لباب السياسة العسكرية كما أفصح عنه بوجو وضباطه هو ال razzia ، أو الغارة التأديبية على قرى الجزائريين على بيوتهم ومواسمهم ونسائهم وأطفالهم .إن العرب يقول بوجو، يجب أن يمنعوا من بذر البذار، أو حصد المواسم، أو رعي مواشيهم ... »[26] يقول مصطفى الاشرف وهو يقدم نماذج لشهادات الضباط الفرنسيين عن صور الإبادة التي مارسوها ضد الجزائريين: (أما سانت آرنو ..SaintArnaud، فكان يفتخر بكل وقاحة في رسائله بأنه محا من الوجود عدة قرى، وأقام في طريقه جبالا من جثث القتلى. أما بيليسي Pélissier، فقد أحرق جماعات من البدو بنسائهم وأطفالهم في المغارات. وكان مونتانياك يتبجح بأنه سار على رأس جنوده الذين كانوا يعرفون باسم مشاة الموت، فقام بمذبحة رهيبة، حتى أصبحت الدواوير خالية من السكان...»[27] . لقد تجنب الكاتب تسجيل حملات الإبادة تلك، لكنه أشار إليها في سياقات عارضة وعناوين ثانوية..مثل (غارة ضد الحجوطين (Razzia sur les Hadjouth)[28] ؛ هذه الكلمةRazzia ، التي أصبحت مقرونة بالاجتثاث من الأرض والقتل والاغتصاب والتنكيل .. لا يفصل فيها الكتاب وكأن المتيجة كانت أرض الأشباح خاصة وأن الكاتب يذكر أن الغارة قد انتهت بالحصول على غنيمة معتبرة من الخيول والجمال والبقر والأغنام، ولا أدري كيف للأهالي أن يفروا ويتركوا خلفهم خيولهم النجيبة في زمن الكر والفر ذاك؟ لكنه بالمقابل يشنع سلوك بعض رجال المقاومة الذين لا يكتفون بقتل أعدائهم من الفرنسيين

بل يقطعون رؤ وسهم ويحملونها معهم من أجل أن ينالوا المكافآت المالية التي يسخوا بها خليفة الأمير عليهم. إن هذا الكيل بمكيالين في وصف الأحداث التاريخية وظيفته الأساسية هو تشويه المقاومة والحط من ثقافة المحلي، وتبرير سلوك الاحتلال إنه كما ينقل إدوارد سعيد عن عبد الله القروي: « إن تاريخ الجزائر من 1830إلى 1870، مصنوع من التظاهر والإدعاءات الزائفة (فثمة) المستعمرون الذين زعموا أنهم يرغبون في تحويل الجزائريين إلى بشر مثلهم، فيما كانت رغبتهم الوحيدة في الواقع هي تحويل تربة الجزائر إلى تربة فرنسية ؛ والعسكريون الذين يفترض أنهم كانوا يحترمون التقاليد وطريقة الحياة المحلية، فيما كان همهم الوحيد في الواقع أن يحكموا بأقل جهد ممكن، وادعاء نابليون الثالث أنه كان يشيد مملكة عربية، فيما كانت أفكاره المركزية أمركة الاقتصاد الفرنسي والاستعمار الفرنسي في الجزائر.. »[29]

ويبدو أن مشروع الأمركة هذا لم يكن يشغل ذهن نابليون الثالث وحده، بل كان مشروع الكثير من مثقفيه من بينهم مؤرخهم تروملييه، هذا ما يتجلى للقارئ واضحا من خلال مقدمة الكتاب حين يبرر سلوكات الاحتلال في الجزائر ويفاضل بينها وبين سلوكات الانجليز والأمريكان في مستعمراتهم، إذ في الوقت الذي كان فيه الإنجليز والأمريكان يواجهون السكان الأصليين بالقمع والبطش هاهم الفرنسيون - حسب وصف الكاتب - يمدون أيديهم لأعدائهم ليرفعونهم من تخلفهم وبدائيتهم إلى مستواهم المتحضر إنه قابيل ينادي هابيل بلفظ أخي، إنهم يسعون إلى صداقاتهم ومشاركتهم مكاسبهم الحضارية[30]. وفي هذا السياق الذي يحرص فيه المؤرخ على تلميع أيد الاحتلال التي تمد للأهالي، لا ينسى أن يحشد كل النعوت السلبية التي تحط من شأن الأهالي، وبدائيتهم فهم - حسب وجهة نظره - عدائيون متعصبون قساة القلوب، تفتك بهم الأوبئة والأمراض ؛ ولا ينبغي أن يخفى على الدارس هذه اللغة التاريخية المتحيزة، التي تتوسل بالصيغ النعتية المدحية في حق الذات، والقدحية في حق الآخر، والتي يفترض أن تكون بعيدة عن البحث التاريخي، ولا تلك المفاضلات العديدة التي تعلي من جهود الاحتلال في الإعمار والتمدين مقارنة بما يبدو له من تعطيل وخيانة وإفساد لدى الأهالي؛ كل هذا يجعل القارئ يشعر بالارتياب في وجاهة المعطيات التاريخية التي تقدمها لنا هذه المدونة ... ولذلك فإن هذا الكتاب التاريخي يكتسي أهمية بالغة حينما يصبح نصا أداتيا يضطلع بمهمة الهدم والبناء بما يمر به من صور

الاحتجاج والتبرير والتزيف والتشويه ...هذه الصور قد لا تبدو للعيان ظاهرة الميسم واضحة الدلالة على مستوى البنية السطحية للخطاب ..إنها النصوص كما يقول إدوارد سعيد أشياء بروتيوسية متحولة حرباوية وهي مرتبطة بظروف معينة وبالسياسة كبرى وصغرى، وذلك كله يتطلب الانتباه والنقد ... إن قراءة النصوص وكتابتها ليستا أبدا نشاطين محايدين : بل ثمة مصالح،وقوى وعواطف مشبوبة، وملذات ناتجة أيا كان العمل جماليا ومسليا[31].

1/4: المثاقفة القاتلة هدم المحلي وتشييد الدخيل :

يلاحظ الباحث المدقّق في هذه المدونة أن الشّغل الأساسي الذي كان المؤلف يسعى إلى رصده، وهو يقوم بالمسح التاريخي الأنتروبولوجي لمنطقة المتيجة وسكانها بعد الاحتلال هو البحث عن الدلائل التي يمكن أن يقدمها كوثائق تبرر سلوك الاحتلال، وتجعل عملية الاحتلال كلها واجبا لابد منه ...إن من أبرز مظاهر حضور السكان المحليين هو الوقوف على الملامح الثقافية التي تعكس حياتهم وتفكيرهم وقيمهم الاجتماعية ؛ وأبرز تجلي لهذه الملامح اللغة المحلية السائدة في المتيجة، والتي يمثل لها من خلال بعض النماذج عبر طرق أسلوبية منها الترجمة، والفرنسة والأسلبة. تبدو نماذج المثاقفة اللغوية تلك في النص التاريخي كنقاط مضيئة يمكن اعتبارها لأول وهلة على أنها شكل من أشكال التعايش والحوار الفكري بين الغالب والمغلوب؛ أو مؤشر على رغبة المؤلف في وسم عمله بصفة الوثوقية والبرهنة، وهذا ما يمنح النص التاريخي الروح العلمية، لكن حقيقة الأمر هي أن الكاتب إنما يوظف تلك الشواهد ليمارس عملية التشويه والتزيف في حق تلك الثقافات، ولذلك فهو لا يسمح بأن يدخل منها في ثقافته إلا ما يكون قادرا على المساهمة في ذلك الدور المنشود: وهو هدم المحلي، إن دخولها في الثقافة الغربية كما يقول برهان غليون: « إلا لتؤكد طابعها كثقافات هامشية مفرغة من محتواها العقلاني، أو كبقايا ثقافية وعناصر أولية وتزينية مستوعبة في الثقافة السائدة . وهي لا تلعب أي دور هام في تنظيم الحياة الاجتماعية العامة، وتجديد أسسها المعنوية والسياسية والإنتاجية. أي في بناء الحضارة. هكذا تقوم الهيمنة الثقافية بإبعاد الثقافات المحلية عن ميادين العمل والإنتاج

والممارسة العمومية المبدعة، فتحولها إلى ثقافات عامية وظيفتها الأساسية تأكيد هوية مفقرة أو الإشارة إليها»[32].

ولذلك عندما نتمعن في الشواهد التي أختارها المؤرخ من اللغة المحلية في المتيجة نجد معظمها إن لم نقل كلها، قد وظفت قسرا لتضطلع بدور التأكيد على فقر هذه اللغة وفقر مستعمليها ماديا وفكريا، وهذا ما يجعل عملية الاحتلال كلها حدثا تاريخيا لابد منه في سبيل تحضير الإنسان وإعمار الأرض.

2.4/ اللغة المحلية موضوع للمثاقفة والتجريب:

لقد أقام الباحث فرضياته المتحيِّزة على أن ثقافة الأهالي في الجزائر والمتيجة على وجه الخصوص أقل شأنا من ثقافته، ومن خلال هذه الفرضية القاتلة، راح يخضع هذه الثقافة للتجريب والاختبار والمحاكمة والعقاب، وأكثر عنصر نال عناية الباحث هو اللغة المحلية، باعتبار اللغة من أكثر عناصر الثقافة تعبيرا عن فكر الجماعة التي تتحدث بها، وعن قيمها وذوقها في الحياة. وكم كان الباحث حريصا على انتقاء الشواهد التي تؤكد فرضياته .

انتقى الكاتب مجموعة من الألفاظ العامية المحلية التي كانت تدور على ألسنة سكان المتيجة والتي يمكن أن نعاين بعضها من خلال الجدول التالي :

تأويل الكاتب	الاصل الفصيح	المعنى	المقابل باللهجة المحلية	اللفظ بالحرف الفرنسي
صاحب الفريك	أبو الفريق	قائد الفريق	بوفاريك	Boufarik
	ذو اللحية الكثة	صاحب اللحية	بولحية	«*Bou-Lahia*
	من في ظهره نتوء	صاحب الحدبة	بوحدبة	*Bou Heudba*

عام البؤس	سنة المجاعة	سنة الجوع	عام الشّر	*l'âamech-Cheurr*
رجل الدين في الإسلام	المُرابِط في سبيل الله	الولي قيم الزاوية إمام الزاوية حارس الزاوية والطريقة الصوفية	المْرَابَطْ	Marabouth
تلاميذ الزوايا	الطَلَبَة (الطلاب)	حفظة القرآن والمتون والعلوم المتاحة	الطُلْبَة (الطالَب)	et *tholba*
زمن الفوضى	دولة الهمل الفوضى	غياب مفهوم الدولة	دولة المْهَمْلَة	*douletmehemla*
مسيحي	النصراني	المتدين بدين النصارى	المصراني قلب النون ميما	*Mthourni*
علامة على التخلف ؟	المِزود :	وعاء من جلد المعز لحفظ الطعام	المْزْوَدْ	*Mezoued*
علامات الفروسية	قربس، قاربوس	حنو السرج على الحصان	قربوز	Guerbous
أم الفقراء	القلّيل قليل المال		أم القلالين	*« oumm el-glalin*
القطار	يأتي مُصَفِراً	يأتي يصحبه الصفير	اللي يجي يزفر	*LéjéZéfi r*

البيت البئيس	الكوخ	البيت القريب المؤقت	القُربي	*Gourbi*

تكشف الألفاظ الدالة على طبيعة المكان المحلي رغبة الكاتب، في إسقاط فرضياته المسبقة على جغرافيا شمال إفريقيا باعتبارها أرضا خلاء ومنطقة عبور بدون هوية، وبيئة للجوع والأمراض، ومن سنن الوجود على هذه الأرض أن المكان إن لم تشغله أنت شغله غيرك لأن الطبيعة ترفض الفراغ.. ولذلك فإن أول ما يشغل ذهن الباحث، هو نفي الفكرة القائلة بالجذور العربية الإسلامية للجزائر ؛ وما دام جهده منصبا حول منطقة المتيجة وبوفاريك، فإنه راح منذ الصفحات الأولى للكتاب يبحث عن أصل لغوي يناسب فرضيته لهذه التسمية. فقال بأن هذا الاسم ليس معناه (**أبو الفريق**)كما هو شائع بل إن هذا الاسم الدال على المكان مكون من جزئين (**بو**) بمعنى الملكية والحيازة كما يستعملها أهل المنطقة، و اللاحقة (**فريك**) التي تعني نوعا من حبوب القمح الأخضر الطري تقطف قبل أن تنضج وتحمص في الفرن وتقدم على موائد الأغنياء خاصة ممزوجة بالزبدة ..هذا ما يقوله الباحث [33] ..وحتى يؤكد وجود هذا النوع من الأسماء المبدوؤة بصيغة بو في اللغة المحلية قدم مثالين آخرين هما (**بولحية**) (Bou-Lahia)، وهو من له لحية كثة، و(**بوحدبة**)(BouHeudba) من على ظهره نتوء أو ورم ظاهر ...

نقف إزاء هذا النموذج من المثاقفة، على أول مظهر للتحيّز في عمل المؤرخ، وهو تجاوزه مستوى التسجيل والتأريخ، إلى مستوى آخر يتمثل في تغليب رأي على رأي آخر دون دليل علمي مقنع، فهو ينفي أن يكون معنى الاسم هو أبو الفريق دون أن يعلّل هذا النفي، على الرغم من حصول الاتفاق بين الغالبية على مشروعيته، ولكن لماذا عارض هذا المؤرخ هذا التفسير، لابد أن ننظر إلى هذا العمل التاريخي باعتباره عملا يفتقد إلى البراءة مادام منظويا في برنامج المنظومة الاستعمارية الفرنسية، إن تسمية أبو الفريق هي تسمية عربية فصيحة لا لابس فيها، سلامة في الصياغة وصحة في الوزن وسمو في الدلالة، وهو ما يؤكد أسبقية الهوية العربية للمكان الجغرافي المستولى عليه، ويؤكد أيضا الأصول العربية الفصيحة لمجموع المفردات المحلية كما مثلنا لها في الجدول. لقد ظل القرآن الكريم والمتون

اللغوية والشرعية المصادر الأساسية التي كانت تلك اللغة تستمد منها معجمها وتراكيبها ودلالاتها؛ ولا ننكر أن تلك اللغة قد طرأت عليه صور عديدة من التحوير والزيادة والاختزال، ولكن تلك الصور لم تعدم أبدا الأصل الأول والجذر الصميم، مما أبقى تلك اللغة المحلية وثيقة الصلة باللغة العربية، كيف لا والقرآن الكريم ما انفك محفوظا في الصدور يتوارثه الأبناء عن الآباء عن الأجداد، منذ دخل هذه الأرض مع الفاتحين المسلمين، وظل حاضرا يتلى في الصلوات والمواسم. وهذا ما منح اللغة العربية قوة الحضور ودوامه في اللغة المحلية لمجموع المتكلمين، ولكن هذه الحقيقة تقض مضجع الاستعمار. ولذلك فإن الاعتراف بالتسمية الفصيحة (أبو الفريق) من قبل مؤرخ عسكري موال للاحتلال متعصب للمشروع الاستعماري، يناقض المشروع الاستيطاني، ويهدم ما يسعى الكتاب لتشييده ..ولذلك نجد المؤرخ يتحيز بصورة سافرة فيعلي من شأن اللغة المحلية التي يتصور هشاشتها على حساب اللغة العربية الفصحى الأصيلة ..

يؤكد الكاتب رغبته في إفقار المحتوى الفكري والجغرافي لهذه الثقافة المحلية، فيلحّ أيضا على لفظ آخر يحيل على المكان، وهو لفظ (الڤربي) يقول في سياق إبراز المصاعب التي واجهها المستوطنون في سهل متيجة، أن جهدهم كان مثل ڤربي مفتوح على الرياح من كل الجهات ... Terrassés par la maladie, tremblant de la fièvre sur une dure paillasse jetée eu travers d'un gourbi ouvert à tous les vents [34].

لا تكتفي هذه الصورة التخيلية بتصوير حالة العناء بل تؤدي وظيفة حجاجية، حين نعلم أن لفظ الڤربي مادة لغوية انتقلت عن طريق الفرنسة من اللغة المحلية الجزائرية وأصبحت مكونا من مكونات المعجم الفرنسي، لكي تحيل على شكل من السكنى والبيت الهش المفتقر لشروط الحياة الصحية الكريمة، حيث نجد في معجم لاروس الفرنسي أن مادة قربي، معناه محل سيئ الصيانة، مسكن بئيس . إن المسكن علامة على الاستقرار والانتماء للمكان والهوية ذات الشرعية الجغرافية والزمانية، وانتفاء المسكن هو علامة على الرحيل وغياب الاستقرار، ولذلك يلح الكاتب على تكرار هذه الكلمة في مواضع مختلفة من الكتاب، ليقلل من قدرة الأهالي على الإبداع والتفنن في العمارة، أو ليبرز الشعور بعدم الاستقرار وغياب مفهوم المسكن القار لدى هؤلاء السكان، وكلا الأمرين

يخدم مشروع الاستيطان، وكأن هذه الأرض هي منطقة عبور، للأقوى الحق في تشييد المسكن والعمارة والوطن .

إن الأصل اللّغوي لهذه التسمية هو مادة قرب، عكس البعد كما ورد في المعاجم العربية، وحولت القاف في اللغة المحلية إلى (ڨ) فنطقوها (ڨربي) تخفيفا على ألسنتهم التي ألفت نطق القاف (ڨ) مثل ما حدث مع القِربَة والقادوم والقوَّال والقَرعة. والقَافلة .. في جميعها نطقوا القاف (ڨافا) تعودوا ذلك وألفوه واستساغته ألسنتهم، ووجود القربي والكوخ أو المنزل الهش البئيس، لا يعني أبدا أن مجتمع المتيجة لم تكن لديه ثقافة البيت الحجري القار، بل لعل ظروف العمل البعيد وتباعد المسافات هو الذي استدعى، إقامة أماكن مؤقتة للسكن بجوار أماكن الزراعة والرعي، وصناعة الفحم، مثلما امتلك أهل البوادي خيما مؤقتة تلائم مواسم الرعي والترحال يقول يوليوس ليبس في كتابه أصل الأشياء: «رغم جميع الإمكانات المتاحة لنا الآن لم نستطع أن نخترع مساكن أفضل من الخيمة لإيواء القوات العسكرية، أو الصيادين، الذين تتطلب طبيعة عملهم سرعة الحركة والتنقل ..»[35]. ولاشك أن مدنا كالجزائر والبليدة والقليعة ومليانة والمدية، إنما كانت على قدر من العمارة الراقية تدل على ذلك الآثار الباقية، ومن الطبيعي أن تكون لبعض سكانها أملاك في المتيجة، لكنه من غير المعقول أن يظل صاحب الملك ذاهبا أيبا لاستغلال أملاكه، فيضطر للإقامة أحيانا، وهذا ما استلزم إقامة منازل مؤقتة، قريبة من مواقع العمل والاسترزاق تقيهم حر الصيف ومطر الشتاء، وأطلقوا هذه التسمية (الڨربي) على تلك المساكن تعبيرا عن قربها، جاء في معجم تهذيب اللغة : « يقال : قد حيّا و قرّب، إذا قال حيّاك الله وقرّب دارك »[36]. لكن الكاتب ظل يردد هذه الكلمة في مواضع مختلفة من كتابه ليحاجج على هشاشة الحياة التي يعيشها سكان المتيجة وافتقارها لشروط الحياة الكريمة، مما يجعل تدخل الاحتلال لتحسينها أمرا لازبا، يصور الكاتب لحظة وصول جنود الاحتلال إلى بعض مضارب سكان المتيجة فيقول: لما وصلنا إلى الموقع كان الأعداء قد نجوا بأهاليهم وأملاكهم ولم يتركوا خلفهم إلا أكواخهم فارغة، فأضرمنا النار فيها لكنها تأبت على الاحتراق، ولما انسحبنا عادوا مثل أسراب النحل يضايقون جنودنا ويباغتوننا بطلقات الرصاص ... .)[37]. يحاول هذا المقطع تأكيد الأيد البيضاء للاحتلال في مقابل كيد الأهالي، وتقدم موقفا قدحيا يقلل من جدارة القربي بوظيفة الإسكان والإيواء الكريم، إنه مسكن

ISSN 2437-0819 EISSN: 2602-6333

يفتقر إلى الدفء والنظافة والأمان، فهو مشكل من الأخشاب الأعشاب الخضراء تسكن فيه الرطوبة والبرودة والأمراض، بالقدر الذي يجعله ممتنعا حتى على ألسنة النار هذه الصورة التي تحاول هذه الفقرة إيصالها من منظور الاحتلال ..لكنها من منظور الأهالي، تؤكد هذه الصورة الوظيفة العملية لتلك المساكن المؤقتة، فهي الأنسب لحالات الكرّ والفرّ، وتؤكد ما ألمحنا إليه آنفا من الوظيفة المؤقتة الإستراتيجية للكوخ.

إن إلحاح المؤرخ على تيمة القربي ما هو في الحقيقة إلا محاولة مقصودة ومخطط لها من قبل، في سياق المشروع الانبريالي الرامي إلى إفراغ المكان من هويته الحقيقية، وملئه بهوية الاستعمار. إن الفكرة المحورية التي يريد تسريبها هي أن علاقة الأهالي بالمكان علاقة باهتة، لأنهم لا يشعرون ـ حسب وجهة رأيه بانتمائهم إليه ـ لذلك لم يبذلوا الجهود الكافية لإعماره وتشييده.

حاول المؤرخ تبرير هذه الفكرة بتلك الصعاب التي كان يتعرض لها السكان، بسبب الأمراض والجوع والكوارث فهو يتحدث عن حياة بئيسة كانوا يعيشونها، بسبب ضآلة الموارد والوسائل التي كانوا يمتلكونها، يذكر الكاتب أن الفترة الممتدة مابين 1867، و1868، والتي تزامنت مع زلزال البليدة جانفي 1867 كانت عصيبة، بسبب الجدب والجوع والأمراض وكان الأهالي أكثر معاناة بسبب ذلك حتى أطلقوا على تلك المحنة (عام– الشر) (l'âam ech Cheurr)، والشر في لغة أهل المنطقة هو الجوع القاتل ؛ ولكن علينا أن ألا ننسى أن الجوع والجدب ـإن كان هناك جوع ـ لم يكن جديدا على أهالي المنطقة، وأنهم قد تعودوا عليه وتلاءموا معه، لكن الاحتلال هو الذي زاد من حدته، لقد سلب الأراضي الخصبة وطرد السكان من أراضيهم وحرمهم من أرزاقهم، فكان ذلك العامل الأساسي لزيادة حدة المأساة ..إن المتيجة بما فيها من مناخ رطب ليس بالبارد الشديد ولا بالحار القاتل وتربة شديدة الخصوبة كثيرة العطاء لم تكن أبدا بيئة للفقر والجوع ؛ والكاتب يعترف بذلك عندما ينقل هذه التسمية التي كانت تطلق على هذه الارض(وهي أم القلالين) بمعنى أم الفقراء، «oumm el-glalin, » la mère des pauvres, l'ennemie de la faim, comme l'appelaient lesArabes .

و(الڤليل) في لغة أهل المنطقة أصلها في الفصحى من القليل قليل المال الفقير، ومعنى ذلك. فإن حتى الفقراء المعدومين لن يعدموا على هذه الأرض طعاما، وهذه التسمية كما يعترف الباحث معروفة لدى الأهالي قبل الاحتلال، يعني ذلك أنهم قد عرفوا قيمة هذا السهل فجعلوه حاميا لهم ضد الجوع والفقر..ولذلك تألق هذا السهل في مخيلتهم واكتسب مكانة مرموقة في منظومتهم الاجتماعية والثقافية، ولا أدل على ذلك من هذا الاسم الذي اختاروه له المتيجة، ينقل الباحث عن بعض طلبة الزوايا أن معنى هذا الاسم هو أم التيجانأي ذات التاج، أو بمعنى المتوّجة.Oumm et-Tidjan . . .. la mère des couronnes، وسواء كان المعنى الأول أو الثاني فإن هذه التسمية إنما تحيل على السيادة والنبل، فالمتيجة هي سيدة الأرض، ملكة السهول الخصبة المعطاء، بما وهبها الله من خصوبة وعطاء وجمال .. وهذا الأمر هو الذي شهد به من مرّ بهذا السهل، أو تنعم بخيراته، لذلك ينقل المؤرخ هذا الوصف الرائع للمنطقة عن المتصوف الشاعر أحمد بن يوسف الملياني [38]. الذي يقول عنها (إنها الزمردة الخضراء للمتيجة) « laverte émeraude de la Metidja[39].

لقد كانت المتيجة خلال قرون عديدة، مورد غذاء سكان حواضر البليدة والقليعة والمدية ومليانة فضلا عن كونها الحديقة الخلفية للجزائر، ولا أدل على ذلك من وجود السوق الأسبوعي (سوق الاثنين) الذي كان يتوافد عليه بدأ من أمسية الأحد التجار والحرافيون والمزارعون، وكان مركزا اقتصاديا لتبادل السلع بين العرب والاتراك والامازيغ وغيرهم منذ العهود الأولى للوجود التركي كما يذكر المؤخ نفسه إن هذا النشاط الاقتصادي الذي كان يضطلع به ذلك السوق هو الأمر الذي أغرى المؤرخ فخصص له فصلا من دراسته ممتدا على أكثر من ستين صفحة كاملة، بدءا من الصفحة 407، من الكتاب ..هذه المقومات الاقتصادية تناقض تماما الصورة التي أراد الكاتب أن يقدمها عن المتيجة في السنين الأولى التي شهدت الحملة الاستعمارية الفرنسية. بل إن في التفسير الذي قدمه المؤرخ نفسه لهذه لتسمية بوفاريك اعترافا ظاهرا بأن أهالي المنطقة قد كانت لهم ثقافتهم الزراعية التي كان دعامتها عنايتهم بزراعة الارض واستنبات الحبوب، مما انعكس على نوع من الرفاهية الاجتماعية تجلت في انتقائهم لصنوف الأطعمة والتلذّذ بها كتحضير نوع من الطعام عناصره القمح الأخضر الطري والزبدة اللذيذة...كما ذكر في كتابه.

4/ 3: صورة الأخر المحلي :

حرص الكاتب كل الحرص على تقديم صورة مشوهة للآخر المحلي: ساكن المتيجة، صورة مفتقرة لأشكال المدنية والتحضر والجدارة بالبقاء، لذلك يصبح مشروع تحضيره أمرا واجبا؛ وإن استحال ذلك فلابد من إزالته، حتى لا يتوقف المشروع الإنبريالي الغربي في التوسع . ولذلك فمنذ الصفحات الأولى من الكتاب نقف على هذه الرغبة الفاضحة ن إذ وهو يمثل للأسماء التي تبتدئ بصيغة الملكية نجده يصطفي من بين عشرات الاحتمالات الممكنة لفظين دالين هما بولحية وبوحدبة لإنسان المتيجة، إن اختيار هذين اللقبين مثالين لتوضيح تسمية بوفاريك، شبيه بجهد إعلام الصورة ودوره في توجيه الرأي العام اليوم .

كان أمام المؤرخ مئات الاحتملات المتاحة من قبيل بوعود بو بغلة بو ببرنوس بوقشابية بوجنان بوشلاغم وهي أسماء كثيرة الشيوع في مجتمع المتيجة، فرضتها ظروف البيئة والمناخ والجغرافيا والدين، فلماذا وقع اختيار الكاتب على هذين الدالين دون غيرهما ؟ إن بولحية اللحية الكثة تحيل على الوجه ذي الملامح الغامضة، وأحيانا قد يثير لدى البعض غياب الملاحة والجمال، أما بوحدبة فهي علامة على تشوه في الخلقة، وكأن بالمؤرخ قد أراد أن يسرب لنا فكرة على تشوهات المجتمع المحلي ومعاناته من الأوبئة والعاهات الخلقية، فهو مجتمع عاطل عن الانتاج بمفهوم العمل ورأس المال، ومعرض للموت المبكر، إن لم يكن بسيف الاستعمار لابد أن تفتك به الأوبئة والعاهات.

وحرص الكاتب على تقديم صورة مشوهة سلبية لجنود المقاومة الجزائرين في فصول متعددة من كتابه، فهو مثلا حين صور معاناة الجنود الفرنسيين من غارات جنود المقاومة الباغتة والسريعة، ركز على صورة الجنود الماكرين الذين ليس لهم إلا بنادق القصدير وصورة المزود المتأرجح المعلق على حنو السرج على الحصان ..فهو ليس له في الحياة إلا صهوة الجواد وزاد الرحلة مستعد دائما للغدر ثم الفرار، إنه بهذا التمثيل، إنما يريد أن يعيد للمخيلة الغربية صورة الغجر المرتحلين النازحين الذين ظلت حياتهم قائمة على السلب والمكر والاحتيال، كما ترسخت في ذاكرة أوروبا لاسيما في القرنيين السادس عشر والسابع عشر، أو صورة الهنود الحمر في حروب الغرب الأمريكي في القرنين الثامن

عشر والتاسع عشر. ولكن هذه الصورة التي حاول الباحث من خلالها أن يشوه صورة انسان المتيجة، تحمل في داخلها مقومات الدفاع والمقاومة، فهذا الإنسان لم يسلك هذا المسلك إلا رغبة في المقاومة في الوضع الذي كان فيه من غياب تكافؤ القوة ..لقد كان المؤلف على دراية ليست قليلة باللغة العربية، وتمثيله بكلمتي المزود والقربوس، لخير مثال على هذه الدراية، هاتان الكلمتان اللتان لم تعودا حاضرتين في الاستعمال اليومي للجزائريين اليوم، لغياب سياق استعمالهما، كانتا من الألفاظ المألوفة لدى سكان المتيجة في القرن التاسع عشر؛ لقد وظفهما الكاتب رغبة منه في إفقار اللغة المحلية ونعتها بصفة البداوة والتخلّف. ولكنه من حيث أدرك ذلك أو لم يدرك، فإنه بهذا التوظيف قد أكد الأصل الحضاري العربي الفصيح لهذه اللغة .. لأن مادة مزود لفظ عربي فصيح من الزاد وهو طعام المسافر جاء في لسان العرب لابن منظور: «والمِزوَد :وعاء يجعل فيه الزاد »[40]. والأمر نفسه ينطبق على مادة قربوس جاء في معجم العين: « قربس؛ القربوس، حنو السرج»[41].

وتأخذ الرغبة في إفقار الإنسان المحلي ولغته بعدا أخر عندما يتعلق الأمر بوصف تفاعل إنسان المتيجة مع مستحدثات الحضارة الغربية . لقد وصلت سكة الحديد إلى بوفريك حوالي سنة 1862، وقرب القطار البخاري بين العاصمة وبوفاريك وسوقها، وهذه اللحظة أراد أن يوثقها من خلال تفاعل سكان المتيجة الذين، انبهروا أمام هذا الوافد الجديد، فراحوا يطلقون عليه أسماء مختلفة تعبر عن روح البداوة والافتقار منها هذه التسمة العامية (اللي جي يسفر ....) ومعناه من يأتي يصحبه الصفير .

لا يخفى على القارئ ما في هذا التمثيل من المباهاة والاستعراض يمارسه الكاتب، في مقارنة بين الحضارة الغربية ومكتسباتها، والتخلف الشرقي، حضارة تنتج وتخترع وتكتشف في مقابل شعوب تنتفع بصورة سلبية عاجزة حتى على مواكبة هذه الحضارة ثقافيا من خلال عجز لغتها المحلية على وضع مصطلحات ملائمة لأشياء الحضارة الجديدة . هذا العجز الذي أراد الباحث تبريره بعجز العقل المحلي على الاتصاف بضرورات التفكير من تأمل وتحليل وتركيب . ويتجلى ذلك أيضا في رغبة الكاتب في اختصار مظاهر العلم في المنطقة في صورة المرابوMarabouth (المرابط) رجل الدين المسلم، أو الطُّلْبة، (tholba)

وهم طلبة الزوايا ..هاتان الفئتان اللتان قدم الكاتب عنهما صورة مشوهة، فهم متعصبون، تظهر في سلوكاتهم ملامح الكراهية؛ marabouths et de tholbafanatiques.

ولم ينس الباحث استثمار كل ما يبرر المشروع الانبريالي في اللغة المحلية، لاسيما ما يشيع في هذه اللغة من عبارات وألفاظ عن غياب مفهوم الدولة، لذلك يتمثل بهذه اللفظة من اللغة المحلية (دولة المهملة)، (douletmehemla) هذه اللفظة التي وردت في سياق إبراز رأي الأهالي في الحكم العثماني، هذا الحكم الذي تقاعس عن أداء دوره الحضاري في الجزائري وظهرت في السياسة التركية الكثير من العيوب أثقلت كواهل المجتمع الجزائري فعبر عن هذا الرفض بهذا اللفظ الدال (دولة المهملة) أي الدولة التي تفتقر إلى النظام ويسود فيها الإهمال، لقد اختار الكاتب هذه اللفظة من اللغة المحلية ليدعم حججه وفروضه حول ضرورة المشروع الغنبريالي الفرنسي في الجزائر مثل اختياره للكثير من الألفاظ المحلية التي وشح بها مؤلفه ...

خاتمة

وجملة القول هو أن المؤرخ الفرنسي العسكري تروملي ما هو إلا واحد من الأقلام المؤدلجة التي جاءت لترسخ قدم الاستعمار في الجزائر إن الجهد الذي اضطلع به الجيش الفرنسي على الأرض المسلوبة كان يحتاج إلى جهد مواز يدعمه على مستوى الفكر والثقافة، ذلك ما قام به ترومليه وغيره ...إن أشكال المثاقفة التي تتسرب في هذا الكتاب لم تكن أبدا شكلا من أشكال الحوار والتبادل، بل كانت صورة واضحة للتعدي وتشويه ثقافة الآخر المغلوب، لذلك وقع اختيار الكاتب بعناية بالغة على النماذج التي تحقق هذا المشروع المتحيز من أجل تجريد هذه الأمة من كل مقومات الوجود والاستمرار، حتى يصبح هذا المجال الحيوي الفكري والثقافي مفتقرا لعناصر وجوده، وهو الأمر الذي تم للاستعمار منه الكثير حينما دعم هذه الحرب الثقافية بحرب أكثر ضراوة هي محاربة الدين واللغة وكل أشكال الوجود الثقافي للمجتمع الجزائري .

إن المشروع الانبريالي الاستعماري ذو أوجه متعددة فيها العسكري والاقتصادي الرأسمالي والثقافي المتعصب المشبع بعقدة التفوق ونفي الآخر ..ولذلك لابد أن نحسن التعامل واستثمار تلك الوثائق التاريخية التي تسجل فترات مغيبة من تاريخنا لاسيما في

القرن التاسع عشر، ونحن وإذ علينا أن نحتاط في استثمار تلك المدونات فلا ينبغي أن نهمل جوانب مهمة فيها، فالكتاب مثلا يؤرخ للكثير من صور المقاومة الجزائرية في منطقة المتيجة في العقد الأول للاحتلال، وهي مادة تاريخية يمكن استثمارها.

التهميش:

---

page de l'histoire de la colonisation algérienne[1] Corneille TRUMELET Bou-Farik, Une/1

2/ ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم) لسان العرب مج/9، حرف الفاء، دارصادربيروت ص20.

3/ ابن منظور، المصدرنفسه ص19.

4/ كليفورد غريتز، تأويل الثقافات، تر/ محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان، ط/1، 2009. (مقدمة المترجم) ص7.

5/ تيري إيجلتون، فكرة الثقافة، تر/ شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 2012. ص13.

6/ كليفورد غريتز، تأويل الثقافات، تر/ محمد بدوي ص8.

7/ مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة (عالم المعرفة)، تر/ علي سيد الصاوي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب الكويت، ع/ 223، يوليو 1997. ص9.

8/ جمال نجيب التلاوي، المثاقفة، تر/ ماهر مهدي،وحنان الشريف دار الهدى للنشروالتوزيع مصر ط/1، 2005. ص 7.

9/ عز الدين المناصرة، النقد الثقافي السلافي، مجلة فصول مج/ 25، 3. العدد 99، ربيع 2017. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص110. 10/ عز الدين المناصرة، المرجع نفسه ص110.

11/ صلاح السروي، المثاقفة وسؤال الهوية، دار الكتبي للنشروالتوزيع القاهرة، ط/1، 2012. ص62.

12/ محمد فاروق النبهان، الاستشراق تعريفه، مدارسه، آثاره، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو 1433هـ/ 2012. المغرب، ص11.

*/ يقول أبو القاسم سعد الله (قيل إن نشأة الاستشراق عموما ترجع إلى أوائل القرن الرابع عشر1312، عندما انعقد مجلس كنسي في فيينا للنظر في إنشاء حلقات(كراسي) اللغات العربية والعبرية والإغريقية والسريالية في باريس و أكسفوروغيرها) ينظر، تاريخ الجزائر الثقافي، ج/6، 1830/ 1954. دار الغرب الإسلامي الجزائر، ط/1، 1998. ص9 .

13 / إدوارد سعيد، الاستشراق، تر/ محمد عناني، دار رؤية للنشروالتوزيع، القاهرة، ط/1، 2006. ص72.

14/ إدوارد سعيد، المرجع نفسه ص94.

15/ إدوارد سعيد، الثقافة والإنبريالية، تر/ كمال أبو ذيب، دار الأداب للنشروالتوزيع، بيروت، ط/4، 2014. ص149.

16/ دوارد سعيد، الثقافة والإنبريالية، ص164.

17/ أبو القاسم سعد الله،، تاريخ الجزائر الثقافي، ج/6، 1830/ 1954. دار الغرب الإسلامي الجزائر، ط/1، 1998.ص7.

18/ أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه ص9

19/ Les Français dans le désert, journal d'une expédition aux limites du Sahara algérien (1863)

20/Études sur les régions sahariennes. Histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger .1864.

21/ Les Saints de l'Islam. Les saints du Tell : légendes hagiologiques et croyances algériennes (1881).

22/ Blida, récits selon la légende, la tradition et l'histoire (2 volumes, 1887).

23/ L Algerie Legendaire En pèlerinage ca et la aux tombeaux des principaux thaumaturges de l'islam. (1892)

24/. ،523Bou Farik p : Trumlet/ Corneille

25/ Edmont About . Le progrès : Librairie de L . Hachette. Paris 1864(Le défrichement seul vous mangera quelques existences, je vous en avertis. Plus une terre est fertile, plus on meurt à la défricher. Un grand capitaliste s'écriait, il y a quelques années, devant les marais d'Ostie : « Que de millions à prendre ! mais il faudrait d'abord y enterrer cent mille Allemands. » Si vousn'avez pas d'Allemands à enterrer, mon cher monsieur, je ne vous conseille pas de débuter dans le rôle de premier ...occupant) p(262)

وحده الاجتثاث من يمنحك بعض الامكان، علي أن أنبهك لن تمنحك الأرض خصوبتها وعطاءها، إذا لم تصاحبها تضحيات، منذ أعوام عديدة صاح رأسمالي كبير وهو يواجه مستنقعات أوستيه قائلا : يمكنكم أن تكسبوا بعض الملايين القليلة، ولكن قبل ذلك لابد من دفن مائة ألف ألماني، إذا لم يكن لديكم ألمان لدفنهم في هذه المستنقعات يا أعزائي أنصحكم بعدم تقمص دور المالك الأول :(ترجمة الباحث)

26/ إدوارد سعيد : الثقافة والانبريالية ص241 .

27/ مصطفى الأشرف: الجزائر الأمة والمجتمع، تر/ حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007. ص 58 .

28 Trumlet/ Corneille : 30 Bou Farik p29

29/ إدوارد سعيد، الثقافة والإنبريالية، ص 242.

30/ Corneille Trumlet / ،Bou Farik (.Lorsqu'une peuplade gêne leur expansion, nous savons ce qu'en font les Anglais et les Américains : ils la suppriment. Quant à nous, c'est différent : généreux jusqu'au jocrissisme, nous tendons la main à notre ennemi pour l'élever jusqu'à nous ; c'est Abel disant à Caïn : « Mon frère ! » et sollicitant son amitié avec le succès que nous savons). p12

31./ إدوارد سعيد، الثقافة والإنبريالية ص374. 32/

برهان غليون، اغتيال العقل، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ط/ 2006..، ص119.

33./ Corneille Trumlet / ،Bou Farik p2.

34/ Corneille Trumlet / ،Bou Farik p14.

35/ يوليوس ليبس، أصل الأشياء تر/ كامل اسماعيل، دار المدى للثقافة والنشر سوريا، ط/ 2، 2006.ص13.

36/ أبو

منصور محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، ج/ 9 تح، عبد السلام هارون، محمد علي النجار، مكتبة لسان العرب، ص127.

37/ Corneille Trumlet /، Bou Farik p 108.

38/ هو : أبو العباس أحمد بن يوسف من رجال التصوف في المغرب العربي عاش على الأرجح مابين 1442، 1527) ولد بمنطقة توات بالمغرب، وتوفي بمليانة عين الدفلة لذلك عرف بلقب الملياني ...أنظر. محمد حاج صادق، مليانة ووليّها سيدي أحمد بن يوسف، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1989، ص78. وينظر، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج/1، دار الغرب الإسلامي، ط،1، 1998 ص 495.

39/ Corneille Trumlet / ،Bou Farik p 19

40/. أبو الفضل أبن منظور، لسان العرب، مج/3، باب الدال فصل الزاي، دار صادر بيروت د ت، دط ص198.

41/ الخليل ابن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ج/3، تر/وتح، عبد الحميد هنداوي ج/ 3، دار الكتب العلمية بيروت لبنان،ط/1، 2003 ص371..